

928. 927
I45khA
C.1

حياة ابن خلدون

وُمِّلَ مِنْ فَاسِقَةِ الاجْمَاعِيَّةِ

محاضرة القاهرا الاستاذ الحقق

السيير محمد الخضر

في الحلقة التي أقامتها جمعية تعاون جاليات افريقيا الشهادية

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

القاهرة

١٣٤٣

عُنِيتَ بِنشرِ

المطبعة الشيليفية - وَمِنْ كُلِّ نَيْتَهَا

اصحاحيمَا : محمد زيد المطب و دار المقام نسوان

شارع خيرت رقم ٤٠

Y314551

10/10/2018



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarab.com

© حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فضل الانسان على كثير من خلق تفضيلا ،
وجعل تفاضلهم بالتفقة في حقائق الشريعة والغوص على أسرار
الكائنات ولن نجد لسته بديلا . والصلة والسلام على سيدنا
محمد الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة ، ثم الرضى عن آله وصحبه الذين
ارتقوا بسكن هذه البسيطة إلى أوج السعادة فكانتوا خيرا مة

أما بعد فقد قرر مجلس ادارة « جمعية تعاون جاليات افريقيا
الشمالية » القيام بمحاضرات علمية اجتماعية ، ووقع الاختيار على أن
يكون موضوع المخاضرة المقترن على القاؤها مساء يوم الجمعة ٥ صفر
سنة ١٣٤٣ (حياة الفيلسوف أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون)
وندوذجاً من فلسفته الاجتماعية . فرأيت أن أفتح المخاضرة ببدأ
نشأته وأنتقل في المهم من أطوار حياته مراعياً ترتيبها الطبيعي ، ثم
أسوق جملة من فلسفته التي طويت صحفتها في خزان كتبنا أحقاً
ودرسها الأجنبي ثم ضرب لها في القارة الاروية أمثلة تشهد بصحتها .
وعلى الله قصد السبيل

مُقدمة

أيها السادة الكرام ،

تأسست هذه الجمعية لنهض مجاليات افريقيا الشمالية حتى
يسيروا مع اخوانهم المصريين جنباً جنباً : يسايرونهم في أفكارهم ،
في آدابهم ، في معارفهم ، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية
الراقية . وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين .
وذلك يجب على كل جالية تعيش في بيته هي أوسع من أوطانها
حريةً واحتمالاً للمشروعات الاصلاحية

والدعوة الى المنافسة في الخير ، والمسابقة في حلبة الشرف
والسعادة ، طرق شق ؟ ومن أقربها مأخذنا ، وأبلغها أثراً ، إلقاء
محاضرات تتمثل فيها سير رجال أدر كانوا بصفاء المعين لهم وكبر هممهم
مكانة راسخة ، وسمعة فاقفة . وقد بدا لنا أن نفتح محاضراتنا
بذكرى الفيلسوف الاجتماعي أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون

(٥)

نسب ابن خلدون

هو ولی الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن
 ابن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون
 الخضري^(١). ويتصل هذا النسب الى وائل بن حجر الصحابي
 الذي وفد على النبي صلی الله علیه وسلم فبسط له رداءه وأجلسه
 علیه ودعاه

ذكر ابن خلدون نسبة على هذا النسق وقال : لا أذكر
 من نبی الى خلدون غير هؤلاء العشرة

دھول سلفہ الائندلسی

كان خلدون المذکور قديم من المشرق في رهط من قومه أهل
 حضرموت ونزل إشبيلية ، وهي حمص التي يقول فيها صاحب مرنية
 الاندلس :

وأین حمصٌ وما تحویه من نُزَّةٍ ونهرُها العذبُ فیاضٌ وملانٌ
 نفرع آل خلدون في إشبيلية ، وكانت لهم فيها زعامة ورياسة .

(١) خلدون بفتح أوله كا من عليه صاحب الحال السندي (محضوط) ،
 وصاحب نيل الابتهاج (من ١٦٩ هامش الديباج المذهب) . وأصل اسمه
 خالد وعرف بخلدون كما جاء في تاريخ المترجم به (٧ : ٣٨٠)

ثم رحل جده الحسن عقب فتنة خفقت ريحها في تلك البلاد فنزل
سبتاً ، ثم ارخي زمام مطيته متوجهاً إلى مدينة (عنابة) لصلة كانت
بين بعض أسلافه وبين صاحبها الامير زكريا فلقيه الامير باحتفاء ،
وأدخله في سلك رجال دولته ، وجرى ابنه محمد على سنه في
خدمة الدولة وأدرك ما ناله والده من وجاهة واقبال . وانتهى أمر
ابنه محمد - الذي هو الجد الادنى للفيلسوف ابن خلدون - إلى
السكنى بمدينة (تونس) والانتظام في هياء الدولة ، وكان السلطان
أبو يحيى إذا خرج من مدينة تونس يستعمله عليها ، ولكن ابنه
محمد - وهو والد الفيلسوف المتحدث عن حياته - عدل عن مسلك
السياسة وخدمة الدولة وأثر مدارسة العلم وبمحاسنة الادباء ، فأصبح
معدوداً في زمرة العلماء ، ومشهوراً له بالتقدم في فن الادب

نشأة ابن خلدون في تونس

في هذا البيت - الذي تقلب رجاله في أطوار خطرة ، ثم
بسط فيه العلم أشعةً باهرة - ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون
في غرة رمضان سنة ٧٣٢ فكانت نشأة ابن خلدون في اسرة
امتنت ذري الرئاسة ، وتحقق فيها روح العلم والادب ، مما ساعد
ذكاءه الفطري على أن يشتعل بشدة ، وجعل نفسه الزكية بقربة
من أضم ال الكبير

نشأ ابن خلدون وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاهية ،
سوق الادب ناققه . فاستظهر بالقرآن ، وتلقى فن الادب عن والده
نم أقبل يجتني ثمار العلوم بشفق ، ويتردّد على مجالسة العلماء
الراسخين - مثل قاضي القضاة محمد بن عبد السلام ، والرئيس
أبي محمد الحضرمي ، والعلامة الابلي . ولم يكدر يستوفي سن العشرين
حتى تحجلت عبقريته ، واستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد
وقتئذ إلى كتابة العالمة عن السلطان أبي اسحاق وهي « الحمد لله
والشكر لله » تكتب بالقلم الغليظ مابين البسملة وما بعدها من مخاطبة
أو مرسوم ، وهذا مبدأ دخول ابن خلدون في حياته السياسية .

عزم على الارتحال

تولى هذا العمل وهو يطوي ضميره على الرحلة من افريقيـة :
لوحـة أثارـها في نفسه ذهـاب مـعـظم شـيوـخـه ، وانـطـوـاء مـجاـلسـهـ
كـانـتـ أـمـهـارـ عـلـومـهاـ دـاـفـقـةـ ، وـقـطـوفـ آـدـابـهاـ دـاـنـيـةـ . وـيمـكـنـكـ منـ
هـاهـنـاـ أـنـ تـعـرـفـ لـابـنـ خـلـدونـ وـهـوـ فيـ شـرـخـ شـيـابـهـ مـبـدـأـ مـبـادـيـهـ
الفـطـرـةـ السـلـيـمـةـ ، وـاهـمـةـ الشـامـخـةـ ، وـهـوـ الـاسـتـخـافـ بـالـقـلـامـ الـوجـيهـ

الدى الدولة ، وإيشار ما فيه كمال نفسي ولذة روحية على مظاهر
الابهة ومواطن الراحة والنعيم

رحلة الى بجاية

لبيث ابن خلدون بعد تقليله رسم العلامة أمداً غير بعيد
حتى أمكنته الفرصة من أميتيه ، وغادر تونس سنة ٧٥٣ الى قفصة
ثم الى بسكرة ونزل فيها ضيفاً مكرماً لدى صاحبها يوسف بن مزني
ثم خرج منها قاصداً السلطان أبي عنان وهو يومئذ بتلمسان ،
فلقيه على الطريق ابن أبي عمرو صاحب بجاية آياً من تلمسان ،
فصرفه عن قصد أبي عنان ، وحمله على المسير معه الى بجاية
ليغتبط بصحبته ، وترذهي بمثل ابن خلدون أيام دولته

ابن خلدون عنده سلطانه فاى

لم يكدر ابن خلدون يقفي في كتف صاحب بجاية برهة حتى
طار صيته ، وعقب ذكره في حضرة السلطان أبي عنان ، وقد جعل
هذا السلطان بعد عوده الى فاس يؤلف من جلة العلماء مجلساً حافلاً ،
فاستدعاه من بجاية سنة ٧٥٥ فأكمل به نظام مجلسه العلمي ، واختاره
للكتابة والتلوّقى بين يديه . قال ابن خلدون « فتحمت هذا

(٩)

العمل على كره مني ، اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي »

انحرافه بالمؤامرة على ما يغضب السلطان

حظي ابن خلدون لدى أبي عنان وارتقى في دولته مكاناً علىاً ، فأخذ حراً الحسد يلفح قلوب بعض منافسيه ، فأخذوا يبيتون له المكائد ، وينصبون له شرك السعاية ، حتى استطاعوا أن يدخلوا إلى افساد قلب السلطان عليه من باب السياسة اذ رموه بالدخول في مؤامرة مع الامير محمد صاحب بجایة . واتهمة الاتهار على تضييق شيء مما تبنيه يد الدولة سهام لا تكاد تحسأ ، اذا لم تصب المقاتل أو هت العظم وقللت الحشا وسلبت الاجفان نومتها الهدائة ؛ وبالاحرى حيث لم تكن قضيابها مما يوكل إلى اجتهد محكمة عادلة ، وانما ينفرد بسماع بلاغها ويستبد بتقدير عقوبها أحد الخصمين الذي هو الرئيس الاعلى

ابن خلدون في السجن

انطلت تلك التهمة على فكر أبي عنان فقبض على ابن خلدون والامير محمد وزوجهما في السجن . وكانت هذه النكبة أول ما لقيه ابن خلدون من بلاء السياسة وأيقن بها أن إقبال الدولة سرعان ما ينقلب إدباراً وإن عزّاً تبنيه للرجل صباحاً قد يأتي عليه

(١٠)

المساء ، فلذا هو الدرك الاسفل من الموان
نم ان السلطان أطلق سبيل الامير محمد ، وترك ابن خلدون
يقاسي شدة الحبس ويتجرب مرارة المخنة ، حق التجأ في استعطافه
وجلب مرضاته الى وسيلة الشعر والمديح وخطابه بالقصيدة التي يقول
في طالعها :

على أي حال ليلالي أعتابْ وأي صروف للزمان أغالبْ
- وقد تنجح شفاعة الشعر لدى الحاكم المطلق وتأتي بالاتر الذي
تذهب الحجيج الساطعة دونه عبثا . وما كان من أبي عنان إلا أن
هش لقصيدة - وكان وقتئذ بتلمسان - ووعد بالافراج عن ابن
خلدون عند حلوله بمحاضرة فاس . ولكن لم يلبث بعد إيايه الى
الحضره الا خمس ليالي فطرقه الوجع ولقي أجله قبل ان يfin بوعده
لابن خلدون

خروجه من السجن وولايته كفامة السر وفطنة الظالم

وبعد مهلك السلطان بادر الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق
سراج ابن خلدون من الاعتقال ، وخلع عليه من الاكرام بُرداً ضافيا
وأعاد اليه ما كان يتقلده من اعمال الدولة
وعند ما استلم السلطان أبو سالم زمام الملك استعمل ابن خلدون

على كتابة سره وألقى اليه الامر في انشاء مخاطباته ، فعدل بالانشاء عن طريقة التسجيع وأخذ به في طريق الترسل - ولم يكن في كتاب الدولة لذلك العهد من يجيد صناعة الترسل - فكانت هذه المزية من أسباب تفوقه وإحرازه قصب السبق في حلبة البيان والتحرير ولم تزل مكانته لدى ابى سالم راضية ، ولم تزحمة سعاية ابن مرزوق - التي تناولت أكثر رجال الدولة - عما كان يتولاه من كتابة السر وانشاء المخاطبات ، بل لم تقف في سبيل تقليده خطأ المظالم آخر عهد الدولة ، حتى ثار الوزير عمر بن عبد الله على السلطان ونبذ الناس ، بيعته من أنعاقهم

ابن خلدون في دولة الوزير عمر بن عبد الله

وقع زمام الحكم في قبضة الوزير عمر بن عبد الله وكانت يده وبين ابن خلدون قبل توليه أمر الدولة مودة وصحبة ، فأقره على ما كان يتولاه من العمل وزاد في جرأته . وكان ابن خلدون يطمح بطغيان الشباب الى غاية اسمى مما يتولى من الاعمال ، وفي أمله ان عنایة صديقه المقتدر لا تترى في اسعافه ببغنته . ولما لاح له ان الوزير أخل بعهد الصحبة أخذه الاستياء من تقصيره الى ان اقطع عن دار السلطان وهجرها إدلاً بسابق المودة ، ولكن منصب الوزارة

انسى عمر بن عبد الله أَنْ من أَساليب عتب الاصدقاء وتد كيرهم
 بحق أغمضوا عنهم هجرَهُم من غير جفاء ، وصرف القدم عن زيارتهم
 لا عن ملل ؛ ولم يشاً منصبُ الوزارة إلا أن يفهمه أن تقاعد ابن
 خلدون عن مقر السلطان زَلَّهُ جرَهُ إليها تعاظمه وقلة وفائه بما يستحق
 مقام الرياسة العليا من إكبار وخضوع ، فبدلاً من أن يرعى الوزير
 مقام الصداقة ويجعله أرفع مكانا وأقوى سلطاناً من مقام الرياسة ؛
 أخذته نخوة السلطة ، وقابل هجر العتاب والادلال بهجر الجفاء
 والتقطيع

ولما رأى ابن خلدون منه التنكر والاصرار على الاعراض
 عنه استأنفه في المود الى إفريقية ، فلم يجز له ذلك ، وشدد في منعه ،
 حتى دخل عليه يوم عيد الفطر وخطبه بقصيدة يقول في طالعها :
 هنيئاً لعيد لا عداته قبولٌ وبشرى لعيد أنت فيه منيلٌ
 فللت هذه القصيدة عقدة من إيمائه ، واذن له في السفر ، على
 شرط ان لا يتخد سبيله الى تلمسان ، كراهة ان يتصل ب أصحابها
 أبي حمو ويشتد به أزر دولته

رهن ابن خلدونه الى الاندلسي

احتمل ابن خلدون هذا الشرط ، وولَّ وجهه شطر الاندلسي
 وافداً على السلطان ابن الاحمر بغر ناطة . ولما بات بمقرية منها وافته

من وزيرها لسان الدين بن الخطيب رسالة يهنته فيها بالقدوم ، ويعبر
بها عن شدة ابهاجه للقياه وضع في صدر الرسالة أبياناً - على سنة
من يجيد صناعي الشعر والنثر - وهي :
على الطائر الميمون والرحب والسهل

حالات حلول الغيث في البلد المخل
يَمِنًا بْنَ تَعْنُو الْوَجْهَ لِوَجْهِهِ
مِن الشَّيْخِ وَالْطَّفْلِ الْمَعْصُبِ وَالْكَهْلِ
لَقَدْ نَشَأْتْ عَنْدِي لِقِيَاكَ غَبْطَةً
تَنْسِي اغْتَبَاطِي بِالشَّيْبَةِ وَالْأَهْلِ
إِرْسَالَ سَفِيرًا إِلَى مَلْكِ الْإِسْبَانِ

نزل ابن خلدون من السلطان ابن الامر منزلة الاحتفاء
والاعنم ، ونديه للسفارة ينه ويدين ملك الاسبان ؛ فعرف الملك
قيمه وأعجب بكماله ومقدراته ، حتى دعاه إلى الاقامة معه بدار
ملكه (إشبانية) ، ملتزماً له بان يرد عليه ما كان لسلفه من أملاك ؛
رفض ابن خلدون هذه الدعوة ، ولم يكن من يشغله المال جبًا
فيؤثره على المقام بين أمتاه التي يشرف بشرفها وينحط شأنه
بالحطاط سمعتها

نذكر وزير الاندلسي لم

حاز ابن خلدون لدى ابن الاحمر رعاية ضافية خفاف الحسد في
 نفوس بعض معاديه وطفقا يسرoron لابن الخطيب ما ينزل ركن
 الصدقة ينه ويدين ابن خلدون حتى اغبر صدره وبدأ عليه انتقاض
 احسن به ابن خلدون ، فعمل وجه البلاد في عينه قاتماً ، ولم يسعه
 بعد تذكر ابن الخطيب وهو القابض على مقاليد الدولة إلا أن يعتزم على
 الرحمة ، واتفق أن وافته كتب من أبي عبد الله صاحب بجاية يستدعيه
 للقدوم عليه فلتحذها ذريعة لاستئذان السلطان في الانصراف إلى
 افريقية دون أن يطلعه على ما كان ينه ويدين ابن الخطيب فامتنع
 في مبدأ الامر ضناً بفراته ثم أدرك أن للحنين الى الوطن حكماً
 لا يغالب فلذن له بالظلم واصدر في تشيعه مرسوماً من املاء ابن
 الخطيب ، يشهد له فيه برفةة القدر واستقامة السيرة والتحقيق في
 العلم ويوصي قواد الدولة وأعوانها برعايته واسعافه في كل حال

سفره الثاني الى بجاية

سافر الى بجاية سنة ٧٦٦ واقامت له يوم مقدمه حفلة مشهودة
 فاركب السلطان خاصته لاستقباله وهرع اليه أهل البلد بنفوس متعطشة
 الى لقائه وانهالوا يمسحون اعطافه ويلثمون يده . فاجتمع له في هذا

الاحتفال اقبال الدولة وانعطاف الامة ، وهم لا يجتمعون لشخص
باتظام إلا حيث تكون الدولة رشيدة ، واذا كانت الدولة قد تقبل
على غير عظيم فان الامة لا تخلي عطفها واجلاها الا على من تقدر
عظمته وتنق بأخلاقه

ولديته الحجاية سلطانه بجاية

تقلد ليوم خلا من قدومه منصب الحجاية ، وهي لدى دول
المغرب : الاستقلال بادارة شؤون الملك ، والانفراد بالواسطة بين
السلطان وبين أهل دولته . بيد أنه استلم زمام السياسة بعد ان
نشأت بين السلطان أبي عبد الله وابن عمه أبي العباس صاحب
قسنطينة فتنة نفدت التدابير دون اطفارها ، وما برحت تتاجج الى
ان كانت عاقبتها قتل أبي عبد الله واستيلاء أبي العباس على بجاية
خرج ابن خلدون باسطلأا يد الطاعة الى أبي العباس ولقي منه
احتفاء وانعاماً وسرعان ما انكشفت عقارب السعاية به تدب حول
السلطان فلم ينشب ان استأنذه في الانصراف فأجاب طلبه بعد
تمنع وارتحل حتى عرج على بسكرة لصحبة كانت بينه وبين أميرها
احمد بن يوسف بن مزني

انصرافه الى العلم

وما كان يتحن به ويقاسيه من مشاكلة المنافسين له في مقاعد
الرئاسة ونصبهم حبائل السعاية به ، ثم تذكر السلطان له بعد الرعاية
والاقبال صرف قلبه عن التعلق بأسباب السياسة وجعله يفرغ همه
في تحقيق العلوم ودراستها . ومن أجل هذا قعد عن السفر الى
أبي حمود صاحب تلمسان حين استدعاه ليقلده الحجابة وكتابة العالمة
ووجه اليه أخيه يحيى ليقوم بعمل هذه الوظيفة مكانه

الراسلة بينه وبين الوزير ابن الخطيب

بعث اليه الوزير ابن الخطيب من غرناطة برسائل يشكو فيها
مضض النوى ويتهف على عهد اللقاء . وقلوب الاصدقاء قلما تتصدع
بحزارات الوشاية وتعود الى عنفوان ودها الصميم ، ولكن الرقة
الدافقة على ذوق ابن الخطيب ، والادب المنسجم في مزاج خلقه
الرصين ، ذهبا باثر ما سعى به اليه قوم لا يفهون ، ونهضا به الى
تاً كيد صدقة انتقمت بينه وبين رجل يداريه علما وأدباً وبصريه
في طرق التفكير والعمل لرقي نظام الاجتماع

وإذا كانت الرسائل مثلاً لمنهج الرجلين في المخاورة ساعات
اللقاء فان هذه الراسلة تنبئك ان المجالس التي كانت تعقد بين هذين

الوزيرين الخطيبين لم تكن مضموناً علم وأدب فقط بل كانت ممتعة بالنظر في الشؤون السياسية الداخلية والخارجية ، فقد أتى ابن الخطيب في بعض هذه الرسائل على تفاصيل من أحوال الدولة بغير ناطة وألم فيها بانباء عن دولة الأسبان في أشبيلية . وكذلك تجد ابن خلدون تعرّض في الجواب عن تلك الكتب لحوادث دول شتى : فتسق فيها قطاعاً من الحديث عن شؤون دول تونس والجزائر والمغرب الأقصى والجهاز ومصر . ولو أن علماء الإسلام أخذوا في هذا السبيل أينما كانوا ، ومدوا جانباً من عنايتهم إلى الاطلاع على تصارييف الدول وبمحارتها سياساتها لبلغوا منتهى المسؤولية وبرءوا من تبعه وقوع الشعوب الإسلامية في هذا البلاء المبين

مساعيه السياسية وهو في بسكرة

أقام ابن خلدون في بسكرة مقبلاً على دراسة العلم ولم ينكث يده مع ذلك من التدخل في شؤون الدولة فكان يشاعر بأبحاثه صاحب تلمسان حين نهض بخيله ورجله على بجاية ، فكان وسيلةً إلى توثيق عرا الصلة بينه وبين السلطان أبي اسحاق صاحب تونس وحمل بعض القبائل على مذاصرته حتى سار إليه بطائفة من قبيل النواودة والنقي به في البطحاء ثم قفل معه راجعاً إلى تلمسان أذ بلغ أبحاثه

ان السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى يتحفظ للونوب على
تامسنان . ولما اقتربت ساعة استيلائه عليها وأخذ أبو حمو في أهبة
الانجلاء عنها الى الصحراء اعتزم ابن خلدون على الارتحال الى
الأندلس وحمله أبو حمو رسالة الى ابن الاحمر صاحب غرناطة فاتصل
بها سفره بالسلطان عبد العزيز ونفي اليه انه يحمل وديعة الى ابن
الاحمر فانفذ اليه سرية اعترضت سبيله فلم تلق عنده ما يتحقق هذه
التهمة وانقلبت به الى السلطان فلقيه هوالي تامسنان فقضى ليلته في
اعتقال وفي الغد اطلق سبيله فانصرف الى رباط الشيخ أبي مدين
ونزل بجواره على قصد التفرغ للعلم ونشر درر الشافية بين يدي طلابه

استئناعه الى فاس

ولم يرزل ممتعيا بحياة علمية خالصة حتى استدعاه السلطان عبد
العزيز وأوعز اليه في الخروج الى بلاد رياح ليجمعهم على طاعته
ومناصرته فانبعث يعمل في هذا السبيل بكلمة نافذة ودعائية ناجحة
الى ان قضى المأرب وبلغ الغاية المنشودة ، وكان يسعى الى هذه المهمة
السياسية وهو مقيم بسكنة في جوار أميرها احمد بن يوسف بن مزنی
الذى هو صاحب زمام رياح ، وما راع ابن خلدون الا ان أخذ
حساده ينفثون سموم الوشاية في اذن احمد بن مزنی فهاجاوه غيره

وأوغروا صدره حتى تنفس بالشكوى منه الى صاحب شورى السلطان وترمار بن عريف ورفع صاحب الشورى هذه الشكوى الى السلطان ، فما كان من نظره الا ان استدعي ابن خلدون الى حاضرة فاس ، فخرج بأهله وولده . ولقيه في الطريق نعي السلطان وتولية ابنه الصبي ابى بكر السعيد في كفالة الوزير ابى بكر بن غازى فدخل فاس وكان له مع الوزير سابق صحبة فأدار عليه من معصرات برره وكرامتها فوق ما يحتسب ، وظل عاكفا على التدريس صارفاً همته الى الوجهة العلمية الى أن ظهر السلطان احمد بن ابى سالم على الوزير ابى بكر بن غازى واجتذب مقايد الامر من يده ، ولم يستقر به الحال حتى قام وزيره محمد بن عثمان يدخل عليه الريبة من جانب ابن خلدون ويغريه بالقبض عليه ، وما هذا الوزير باول من ازدهرت به الرياسة وتطوحت به في غرور حتى عمى عليه أن لا عاظم الرجال كابن خلدون تاريخاً باقياً وصحاباً لا تفader صغيرة ولا كبيرة من مجاملة أهل عصره له أو اساءتهم الا أحصتها

عودته الى الاندلس سنة ٧٧٦

قبض عليه السلطان ابن ابى سالم وسرعان ما نهدى الى خلاصه الامير عبد الرحمن الذي شارك السلطان في حرب الوزير ابى غازى

وأتفق معه على أن يستقل بولاية مراكش وأعمالها ولم يطمئن به المقام
بعد أن رأى من تذكر السلطان وسوء طوية وزيره ما رأى ، فابتغى
الوسيلة إلى إذن السلطان له بالانصراف إلى الأندلس ليتفرغ
للعلم ومدارسته في ظل دولة ابن الأحرar الذي أولاه في رحلته الأولى
سابع الكرامة والأنعام ، ولم يظفر بالجواز إلا بعد تسويف وعلى
رغم من وزيره ورجال دولته

دخل الأندلس سنة ٧٧٦ فجرى السلطان على عادته من بسط
يد الأكرام وائز الله منزلة الاحتفاء والرعاية إلى أن وفد على غرناطة
مسعود بن ماسي من حاضرة فاس وأبلغ السلطان بأغراe من رجال
دولتها أن ابن خلدون كان يبذل مساعيه وجاهه في خلاص لسان
الدين بن الخطيب^(١) ، فانقلب عطف السلطان عليه جفاء وأنسه به
وحشة واجلاء إلى العدوة من بلاد المغرب الأقصى
وموضع العبرة في هذه الواقعة إنك تقارن بين عودته من
الأندلس فتجده في المرة الأولى قفل من غرناطة والسلطان يحيط

(١) كان لسان الدين بن الخطيب بفضل ماله من التبحر في العلم والأدب والخبرة
يعذب السياسة قبض على زمام دولة ابن الأحرar وافتقرد بالتصرف في شؤونها
فتشجيت به بظاهر السلطان وحاشيته وانساقوا إلى السمية به من كل حدب حتى أحسن
بأنها أخذت من السلطان مأخذ القبول فاحتلال للخlaus من الأندلس والتراجأ إلى
السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى وبي في ظل رعايته ثم في حماية

له يد المجاملة ويدعه بقلب يأسف لفراته ، ثم هو متوجه نحو بجایة
والدولة متأهبة لاستقباله باجمل ما يتصور من مظاهر الاحتفاء . وتراء
في هذه المرة انصرف عنها والسلطان يكره اقامته وتطوى عنه بساط
انسه ، خرج وهو لا يدرى أين يلقى عصا التسيير : هذه دولة الاندلس
تنفيه من أرضها ، وتلك دولة المغرب الاقصى تلحظه بعين الحنق وترمى
من ورائه بسهام السكيد والاذى ، وهذا ابو حمو صاحب نامسان لم يزل
ي quem عليه مشابعته للسلطان عبد العزيز وسعيه في صرف وجوه العرب
عنه يوم كان طريدا في الصحراء . بيد ان ابا حمو كان على رؤية
لا يفوتها ان الاخذ في معاملة رجل خطير كابن خلدون بالرفق
والانارة اناها توضع في حساب الحسنات التي ينوه بها التاريخ ويرتقي بها
شأن دولته فسمح له بدخول نامسان خجاءها وقد ذاق من صروف
السياسة عذاب المون فما كان الا ان تجرد للقراءة ولم يشغل وقته
بسوى المذكرة في العلم و دراسته

الوزير ابي بكر بن غازى من بعده . ولما استولى احمد بن ابي سالم على حاضرة
فاس حسبا قصصناه في المخاضرة وكان استيلاؤه عليها معاونة وموالاة من
السلطان ابن الامر قام سليمان بن داود ينزي السلطان بالتبض عليه فاودعوه
السجن واثمرروا على قتلهم بدعوى انه وقت له كلام في كتاب الحجة تتعلق
بزندقتهم . ثم اوعز سليمان بن داود الى بعض الاوغاد بقتله فهجموا عليه ليلا
وقتلوه خنقا في محبسه

وقد يكون انحراف الدولة عن النابغة أو اضطهاده أشد داعية إلى بذلك كل مماليك من الجد واللامعية في توسيع دائرة معارفه أو الخنق في صناعة التأليف أو الاستنباط ، فلن السكرد الذي قد يثيره تفاصيلها عن مكانه أو بخسها من قيمته إنما يكشفه ارتياح النفس وتعتها باستطلاع حقائق العلوم التي هي أصفي لذة وابقى سؤددامن نيل الحظوة والقرب من مجالس الامراء

تصنيف ابن خلدون تاریخ و مقدمته

ما برح ابن خلدون منقطعاً لبث العلم حتى بدا لابي حمأن
يعثثه سفيراً إلى الدواودة ليراوضهم إلى طاعته ويجمعهم على ولائه .
فلي طلبه في الظاهر وخرج وهو يسر في نفسه أن لا يعمل لهذا
السبيل بعلة أنه أصبح يعز عليه بذلك شيء من أوقاته في غير الوجهة
العلمية . ولعله سُئِّم التدخل في السياسة التي قد تلتوي به مع اهواه
الامراء وتحمله على أن يسعى في استنجاد القبيلة لمن كان يغيرها عليه
ولما وصل إلى البطحاء ولـ وجهه عن ناحية الدواودة جانباً
ونـى عـناهـ إـلـىـ أـلـاـدـ عـرـيفـ ، فـأـنـزلـوهـ بـقـلـعةـ أـلـاـدـ سـلـامـةـ ، وـأـقـمـ
يـنـهـمـ أـرـبعـ سـنـينـ فـيـ جـوـ هـادـيـ ، وـيـنـتـهـ لـاتـجـيشـ فـيـهاـ مـرـاجـلـ
الـحـسـدـ وـلـاتـقـفـتـ فـيـهاـ الـوـشـايـةـ سـهـاـ نـاقـعـاـ وـفـيـ هـذـهـ السـنـينـ - الـيـ كـانـتـ

مهبط السكينة وصفاء الفكر وارتياح الضمير - شرع في تأليف تاريخه
الفاائق ، ولذلك الحين أتم مقدمته على نسجها الحكيم وتحقيقها البديع

عودته الى وطنه

سل يده من كل شاغل ، وألم فكره ثدي الاستنتاج والتفقه في
المقاصد العالمية والشؤون العمرانية حتى بلغ في مجالها شأوا لا يشق
غباره ، فنافت نفسه الى زيادة التوغل في أسرار العلم والاستفادة من
كتب لا تناها الايدي الا في الحواضر ؛ فراسل صاحب تونس
أبا العباس بالعودة الى تونس التي هي مسقط رأسه ومسحب ذيل شبابه
ومحرى جياد أنسه ، فما تريث أن طمع عليه جواب السلطان ياذن
له بالقدوم ويحثه عليه ، فأنبرى يطوي الفيافي حتى أوى الى ظلل عنائه
وأنزله منزلة المقتبط بسابقات عزه ومظاهر كرامته
ظن ابن خلدون - مذ حط رحله بين قومه وسحب رداء العز في
وطنه - أن الزمان صالحه بيد المصادفة وان الحوادث أصبحت تهاب
أن تفضي ساحتها ، فإذا تقريب السلطان له واستخلاصه جليساً يضرم
في قلوب فريق من الناس نار الغيرة والحسد فلم يتكلوا أن بانوا
ينصبون له حبائل الوشاية ويهمسون في أذن السلطان بما يوغر صدره
عليه . وما تعلقا به في أسباب الكيد به تخليه عن صوغ الشعر في

مدح السلطان وزعموا لديه أنه لم يُعن بعديمه كما عني ب مدح سلاطين المغرب والأندلس استخفاقاً بمقامه وكفراناً لنعمته وقد ضل هؤلاء عن سوء السبيل : فإن العالم الاديب قد يهفو به نزق الشباب أو ينساق بحكم الفضوره الى مدح بعض الرؤساء حتى اذا بلغ في العلم أشدده وخلع عليه التقدم في السن حلة السكينة والوقار عافت نفسه ذلك الفن المزري من الشعر وجمدت قريحته دون أن تنطف فيه قطرة . فيجب على صاحب الدولة الرشيدة أن يكون على همة اسى من أن تتشوف الى سفاسف الامور وأظهر من أن ترضي للذين أوتوا الحكمة أن يلقوا بأنفسهم في حضيض الملقي والاستعطاف بل الأحمد لذكره والادعى لحمده أن يكون اكرام العلماء في نظره حقاً تقتضيه فضيلة العلم بنفسها

تقدير مم ثار بمحنة الى صاحب تو نسي

فلجأه صديق له - كان أحد بطانة أولئك السعاة - بما يكيدونه به تحت ستار وكان قد اعتم على ان يقدم للسلطان نسخة مما كمل من تاريخه . فاتهـز الفرصة وأنشـدـه سـاعـةـ اـهـدـائـهـ الـكتـابـ قـصـيدةـ اـمـتـعـهاـ بـذـكـرـ سـيرـهـ وـفـتوـحـاتـهـ وـنسـجـ فيـ ذـبـلـهاـ الـاعـتـذـارـ عنـ اـنـتـحـالـ الشـعـرـ بـأـسـلـوبـ بـلـيـغـ . وـيـقـولـ فيـ هـذـاـ الـاعـتـذـارـ :

و اليكها مي على خجل بها عنراء قد حللت بكل نفس
لولا عنائك التي أوليتها ما كنت أعني بعدها بطرس
والله ما أبقيت ممارسة النوى مي سوي رسم امر دريس
أخني الزمان علي في الادب الذي دارسته بمعجم و دروس
فسططا على فرعى و دروع مأميني واجتث من دوح النشاط غروسي
ورضاك رحمني التي اعتدتها تحبي مي نفسي و تذهب بوسى

ابن هملوده في مصر

وما برحوا يرکبون في السعاية به كل فن حتى شاهد أثرها في
معاملة السلطان له فرام التخلص من مثار هذه الفتنة وابتغى الوسيلة
إلى ذلك باستئذان السلطان في السفر لأداء فريضة الحج ، وقدم
الاسكندرية لمفي عشر ليال من جلوس الملك الظاهر على عرش
الملك . ثم انتقل إلى القاهرة وتصدى للتدریس بالجامع الأزهر وانصل
بالسلطان ذا كرم متواه وأعاد ليل غربته ووحشته صباح أنس
وطمأنينة . وأولاه وظيفة التدریس بمدرسة القمححة ثم قلده خطة
قضاء المالكية على وفق النظام المتبع لذلك العهد من اقامة قضاة
على عدد المذاهب الاربعة يلقب كل واحد منهم بقاضي القضاة
فتحرى بهذه الخطة صراطًا سويا ولم يدخل وسعا في العمل على اصلاحها

وتجديـد مادرـس من معـالـمـا وـلم تـأـلـفـ العـامـةـ الصـرـامـةـ فـيـ اـقـامـةـ الـحـقـ عـلـىـ
وـجـهـ الصـرـحـ وـلمـ يـعـتـدـ ذـوـ اـلـجـاهـ وـالـشـوـكـةـ مـنـ رـجـالـ الدـوـلـةـ اـغـلـاقـ
بـابـ الشـفـاعـةـ وـالـتوـسـلـ فـيـ وـجـوهـهـمـ .ـ فـتـعـاـقـدـ الـفـرـيقـانـ عـلـىـ التـظـلـمـ مـنـهـ
وـالـهـوـيـشـ عـلـيـهـ لـدـىـ السـلـطـانـ بـدـعـوـىـ أـنـهـ غـيـرـ خـبـيرـ بـالـتـقـالـيدـ الـمـعـبـرـ
عـنـهـاـ بـالـمـصـطـلـحـ .ـ وـانـضـمـ إـلـىـ هـذـهـ الـخـنـةـ نـكـبـةـ فـيـ أـهـلـهـ وـولـدـهـ اـذـ
ابـحـرـوـاـ مـنـ تـونـسـ لـيـلـتـحـقـوـاـ بـهـ فـغـشـيـتـهـمـ رـيحـ عـاصـفـ وـهـلـكـوـافـيـ
الـبـحـرـ غـرـقاـ

وقفـ السـلـطـانـ تـجـاهـ تـالـكـ الشـكـوـيـ موـقـفـ الحـكـمةـ فـيـ جـمـعـ بـيـنـ الـحـزـمـ
فـيـ السـيـاسـةـ وـكـرـمـ الـهـمـةـ ،ـ فـقـصـلـهـ عـنـ الـخـلـطـةـ تـهـدـيـةـ ثـائـرـةـ الـجـهـوـرـ
وـاسـتـمـرـ عـلـىـ موـاصـلـتـهـ بـالـرـعـاـيـةـ وـالـانـعـامـ وـفـاءـ بـحـقـ الـعـلـمـ وـاقـتـنـاـصـ الـمـفـاـخـرـ
يـزـدـهـيـ بـهـاـ وـجـهـ تـارـيـخـهـ الجـيـدـ

ابـنـ زـمـرـكـ وـالـوـزـيرـ اـبـنـ زـمـرـكـ

وـبـعـدـ أـنـ قـضـىـ ثـلـاثـ سـنـينـ عـاـكـفـاًـ عـلـىـ التـدـرـيسـ وـالـتـحـرـيرـ
خـرـجـ لـقـضـاءـ فـرـيـضـةـ الـحـجـ سـنـةـ ٧٨٩ـ وـقـفلـ رـاجـعاـ إـلـىـ القـاهـرـةـ وـانـصـلـ
حـيـنـ بـلـغـ الـيـنـبـعـ بـكـتـابـ يـحـتـويـ عـلـىـ شـعـرـ وـنـتـرـ رـاسـلـهـ بـهـ أـبـوـ عـبـدـ اللهـ
ابـنـ زـمـرـكـ وـزـيـرـ السـلـطـانـ اـبـنـ الـأـمـرـ صـاحـبـ غـرـنـاطـةـ ،ـ وـجـلـودـةـ نـظـمـهـ
وـصـفـاءـ دـيـبـاجـتـهـ بـحـيـثـ يـسـوـغـ لـنـقـادـ الـادـبـ اـنـ يـضـعـوـهـ بـالـمـكـانـ

الاسمي من الشعر ويقضوا له بالسبق في حلبة البلاغة رأينا من اللائق
بهذه المعاشرة أن تحلى جيدها بطلاق من فرائده ، ومتى يقول في أوائل
هذه القصيدة :

ويمازاجري الاعغان وهي ضوامر دعوها ترد ^{هـ} عطاشاً على نجد
ولاتنشقوا الانفاس منها مع الصبا فان زفير الشوق من مثلها يعدي
براهما الموى بربى القداح وحطها حزون على صفح من الفقر متدا
عجبت لها أنى تجاذبني الموى وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العذيب وبراق مياه بني ^{هـ} الظل للبان والرند
ها شاقي الا ^{لـ} دور خدورها وقد لعن يوم النفر في قصب ملد
وكصارم قدسل من لحظ أحور وكذا ^{لـ} ذابل قد هز في ناعم القد
خذوا الحذر من سكان رامة انها ضعيفات كسر الاحظافت بالاسد
واسترسل في هذا الطرز البديع والنسيب الساحر حتى تخاص
الى خطاب ابن خلدون بقوله :

اليك - أبا زيد - شكاة رفعتها وما أنت من عمرو لدي ولا زيد
يعيشك خبرني ولا زلت مفضلأً أعندهك من شوق ^{كـ} مثل الذي عندي
فكك ثار بي شوق اليك مبرح فضللت يدا الشواق تندح من زندي
يقابلني منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياة الذي تبدى

وتوهّمي الشمس المنيرة غرة بوجهك صان الله وجهك عن رد
محياك أجيال في العيون من الضحى وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد
واطّرد في هذا النسق العبر عن الوداد الحض والشوق الطافح،
وبلوغ الشعر في جودته إلى هذا الحد مما ينبه على رفعه منزلة ابن خلدون
في نفس الوزير ابن زمرك ، اذ الشاعر وان كان مقلقا لا يطيل نفس
الشعر ويرتقي في ابداعه إلى هذا المظهر الا عن داعية تزعج قريحته
وتأخذ بمجامع عنائه . وليست الداعية في هذا المقام سوى الاعجاب
بكال ابن خلدون والختين إلى حدائق آدابه الظاهرة

وبعد عودته إلى القاهرة تقلد خطة القضاء مرة ثانية ثم عزل
عنها ، وقد تولاها مراراً وبلغت ولايته هائماً تخليه عنها منذ هبط
مصر إلى أن توفي نحو ست مرات

ابن خلدون واطّاغية تيمورلنك

وكان الملك الناصر فرج يسلك في رعايته والاقبال عليه بوجهه
البر والانعام مسلك أبيه الملك الظاهر ، واستصحبه في خروجه
إلى الشام أيام الفتنة التترية . فكان ابن خلدون ممن وقفوا في
الأسر . ثم غشي مجلس تيمورلنك في طائفة من الأعيان والقضاة
ومكنته دهاؤه وبراعته في فن السياسة من افتتاح باب الخطابة

والدخول معه في حديث اصاب موضع هواه وأخذ بجامع لبه حتى
أحرز لديه مكانة الرعاية والا كرام وحمله الاعجاب بسمو مداركه
وكياسته منطقه على اصطفائه لنفسه والانقلاب به الى مقر ما كله
ليكون شهاباً ناقباً في ماء دولته ودرة وضاءة في سلك علمائه
ولم تطب نفس ابن خلدون لأن يحيط في اهواه هذا الطاغية
ويتطوح في مباراته ان يدخل في شيعته ويعمل تحت لوائه وتلطى
في مخادعته باستئذانه في العود الى مصر ليجمع أمره ويضم اليه
أهلها وكتبه ففندت الخدعة وبلغ أمنيته، فعاد الى القاهرة ومد بها
طلب الاقامة الى أن أدركه أجله وهو في منصب القضاء لاربع بقين من
رمضان سنة ٨٠٨ ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر.
وقبره غير معروف شأن من يوا فيه الحمام في دار غربة أو يقربه
قوم كسدت لديهم بضاعته الغالية وكانت أبصارهم دون الوصول الى
حرامييه السامية .

أخلاق ابن خلدون

يمكن للناظر فيما اقتبسناه من سيرة ابن خلدون أن يشهد له بعض خصال سامية كعلو الهمة ورقة الحاشية وقلة المبالاة باقتحام المصاعب والمخاطر . وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتاب الاحاطة ببعض أخلاق شريفة اذ قال : هو حسن الخلق جم الفضائل ظاهر الحياة وقرر المجلس على الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادرة قوي الجأش طامح لقتن الرياسة جواد حسن العشرة عاكف على رعي خلال الاصلاح . ووصفه الوزير أبو عبد الله بن زمرك في قصيده المومأ إليها آنفا بشدة الحياة اذ قال :

يقاربني منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياة الذي تبدى
ويمحسن الخلق اذ قال :

لقيتك في غرب وأنت رئيسه وبابك للاعلام مجتمع الوفد
فأناست حق ماشكوت بغرة وواليت حق لم أجده مضمض فقد
وعدت لقطري شاكرًا مابلوته من اخلق المحمود والحسب العدد
وقد أثني عليه الاستاذ ابراهيم الباعوني الشامي وكانت بينهما
مودة وصحبة ووصفه بعلو الهمة

(٣١).

وأومأ ابن الخطيب الى مغنم في خلقه وهو يعده عن حسن الثنائي
وشفوفه بشقوب الفهم وجودة الادراك ، وجعل هذا هو العلة في تحامل
رجال الدولة عليه وانطلاق السننهم في السمية به لدى السلطان

ولزه ابن حجر في كتاب « رفع الاصر » بخلاق الكبير ،
والازدراء بمقام غيره . وذكر في شواهد هذا ان القضاة دخلوا
لسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يتمم لاحد منهم واعتذر لمن
عاتبه على ذلك . ومن تقصى أخبار النوايغ من أهل العلم والادب
وجد أكثراً يتطلع في الاحتياط بالظاهر اللائق بعظامته الى الحال
الذى يعده علم الاخلاق في قبيل الكبير والخيالاء

وقدفه ابن حجر بخلاق الفاظطة وجفاء الطبع أيام كان قاضيا ،
وحكى عنه انه كان يعزز الخصوم بالصفع - ويسميه ازج - فإذا
غضب على انسان قال زوجه فيصفع حتى تحرر رقبته . وتجاووز ابن
حجر في التشنيع عليه حتى رماه بارتكاب ما لا يحمل لنا الادب الجميل
ابراده في هذه الحاضرة فالله اياهما وعليه حسامهما . ومن قرأ
ما كتبه ابن حجر في ترجمة ابن خلدون وجدها منسوجة على قصد
الحط من شأنه وكتم شيء من فضله ، فلا يبعد أن يدخل في عبارته غلو
أو يتواهله في النقل عمن كان بينه وبين المترجم له منافسة وتحاصل

مكانته في العمل

أُبْنِيَتْ المَعَاهِدُ الْعَلَمِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ خَوْلِ الْعَلَمَاءِ رِجَالًا لِلْأَنْهِيَّةِ
بِهِمْ أَقْلَامُ الْحَاسِبِينَ ، وَلَكِنَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَتَسَمَّوْنَ فِي الْعِلْمِ الْفَرِودِ
الْقَصْوِيِّ وَتَنَفَّجِرُ قِرَائِبُهُمْ بِمَدَارِكَ فَاتِّفَاقَةٍ فِي تَخْرِجِهَا لِلنَّاسِ فِي أَسْلُوبِهَا
الْحَكِيمُ لَيْسُوا بِكَثِيرٍ ، وَمِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْعَزِيزَةِ الْمُثَالُ أَبُو زَيْدُ عَبْدُ

الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونَ

كَانَ بَعِيدُ الشَّأْوِ فِي الْعِلْمِ الْشَّرِعِيِّ وَالْعَرَبِيِّ ، خَبِيرًا بِالْعِلْمِ
النَّظَرِيِّ ، ضَلِيلًا فِي الْفَنَّوْنَ الْأَدِيبِيَّ ، وَيُشَهِّدُ لَهُ بِالرَّسُوخِ فِي الْعِلْمِ
الْكَتَبِ الَّتِي درَسَهَا مَثَلُ تَهْذِيبِ الْبَرَادِعِيِّ فِي الْفَقَهِ ، وَمُختَصِّرِي
ابْنِ الْحَاجِبِ الْأَصْلِيِّ وَالْفَرْعَوِيِّ ، وَكِتَابِ الْمَوْطَأِ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهَا
مِنِ الْأَمْهَاتِ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ ، وَكِتَابِ التَّسْهِيلِ لِابْنِ مَالِكٍ فِي النَّحْوِ
وَأَخْذِ الْعِلْمِ الْعُقْلِيَّةِ وَالْمَنْطَقِ وَسَائرِ الْفَنَّوْنِ الْحَكِيمَيَّةِ وَالْعَلَمِيَّةِ

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيِّ

وَحَسِبَكَ شَاهِدًا عَلَى تَقْدِيمِهِ فِي هَذِهِ الْعِلْمِ الْنَّقْلِيَّةِ وَالْعُقْلِيَّةِ مُقْدِمةً
تَارِيَخَهُ الَّتِي أَمْتَعَ فِيهَا الْبَحْثَ عَنْ حَقَائِقِ هَذِهِ الْعِلْمِ وَفَلَسْفَهَا عَلَى
طَرْزٍ لَا يَتَكَرَّهُ إِلَّا مَنْ مَارَسَهَا عَلَى يَيْنَةِ مِنْ أُمُرِّهَا وَتَوَلَّ فِي احْشَائِهَا
وَأَضَافَ إِلَى هَفَافَةِ الْفَكْرِ وَالتَّبَرِيزِ فِي الْفَهْمِ قُوَّةَ الْحَفْظِ فَكَانَ

يحفظ القرآن الكريم والملقات وديوان الحماسة وشعر حبيب وقطعة من شعر المنبي وسقوط الزند وطاقة من أشعار كتاب الأغاني وغير ذلك من المنشومات العلمية

ابن خلروبه والحافظ ابن حجر

قصد الشيخ ابن حجر الخطمن شانه في العلم فقال في «رفع الضر»: وقد ذكره ابن الخطيب في تاريخ غرناطة ولم يصفه بعلم وإنما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه. وقد نقل صاحب نفح الطيب ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون في كتاب الاحتياط وهي تتضمن وصفه بالعلم حيث قال: متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور

وقال ابن حجر: وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه فلما سأله عن سبب ذلك ذكر لي أنه بلغه أنه ذكر الحسين بن علي في تاريخه فقال: قتل بسيف جده. قال ابن حجر: ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن، وكانت ذكرها في النسخة التي رجم عنها

والعجب من الحافظ أبي الحسن حين يغض من مقام ابن خلدون لبلاغ مزور عنه، ثم من الحافظ ابن حجر حين ينفي ذلك

من تاريخه ويرجو أن يكون ذكره في النسخة التي رجع عنها .
والحقيقة أن ابن خلدون أورد ذلك في الفصل الذي عقده في ولاية
العهد من المقدمة عزيزاه إلى القاضي أبي بكر بن العربي المالكي .
ومتعقباً له بالرد ونصه :

« وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال
في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواسم ما معناه : إن الحسين قتل
بشرع جده وهو غلط حمله عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ،
ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل
الآراء »

ومن مثل هذا يستدل على أن بعض الطاعنين على ذوي
الآراء الاصلاحية قد يؤتون من عدم اطلاعهم على نفس مقالاتهم
واستيفاء النظر في مؤلفاتهم

ثم قال ابن حجر مستشهدًا على ما يدعى من ضعف مكانة ابن
خلدون العلمية :

« حتى ان ابن عرفة لما قدم الى الحج قال : كنا نعد خطة
القضاء أعظم المناصب فلما بلغنا أن ابن خلدون ولـي القضاء عدنا
بالضد من ذلك »

غير بعيد صدور هذه المقالة من الشيخ ابن عرفة فإن ابن خلدون لم يكن ملوء الحافظة بتفاصيل علم الفقه بحيث يكون أخصائياً في أحكام نوازله الجزئية وهذا هو المنظور إليه في أهلية القضاء لذلك العهد . أما أن يكون الرجل مكيناً في علم الأصول فاتلا قواعد الفقه خبرة ذاته في صناعة تطبيق القواعد على ما يعرض من الواقع - وهي المرتبة التي لا يقصر عنها ابن خلدون فيما نعتقد - فلهم أن ينفوا عنه أهلية القضاء ويطرحوه من حساب من يتقلدها بحق

ثم إن البون الشاسع الذي كان بين مسلكي الشيخ ابن عرفة وابن خلدون في العلم يقتضي أن يكون بينهما من المنافسة ما لا يمنع أحدهما من القدح في مكانة صاحبه ، وقد كان بينهما في تونس محاافة وادعى ابن خلدون أن لابن عرفة اصبعاً في السعيات التي بلوه بها لدى صاحب الدولة التونسية

مؤلفاته:

أبي ابن الخطيب في كتاب الأدب من مؤلفات ابن خلدون فقال : شرح البردة شرعاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه وتفنن أدراماً وغزارة حفظه ، وخلص كثيراً من كتب ابن رشد

وعلى للسلطان - يعني ابن الاحمر - أيام نظره في العقليات تقييداً مفيدةً في المنطق ، ونلخص محصل الامام خير الدين الرازى وألف كتاباً في الحساب ، وشرع في هذه الأيام في شرح الجزء الصادر عنى في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في السكال . وقال صاحب نفح الطيب بعد تقل ما جاء في الاحتاطة من التعريف بابن خلدون : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأوسطه فكيف لورأى تاريخه الكبير . وما قاله المقرizi في وصف مقدمة هذا التاريخ : وانه لعزيز أن ينال مجتهداً منهاها ان هي الا زبدة المعارف والعلوم وبهجة العقول السليمة والفهم . توقف على كنه الاشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والانباء . وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ على أصل كل موجود . بلحظ أبيه من الدر النظيم ، وألطاف من الماء مر به النسم . ورام الشيخ ابن حجر ان يبخس كل أثر له حتى هذه المقدمة فقال في كتاب رفع الاصر بعد حكاية كلام المقرizi : وما وصفه به فيما يتعلق بالبلاغة والنلاعنة بالكلام على الطريقة الجاحظية فسلم . وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الامر كما قال الا في بعض دون بعض ، الا ان البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن وقد نقلت هذه المقدمة الى لغات اخرى من تركية وابطالية

وفرنسية فكانت أحد آثار العربية التي شهد بها الغربيون كيف يرثي الفكر الناشيء في معاهد العلوم الإسلامية حتى يتمنى له أن يبحث في نظم الاجتماع ، وطرق الاصلاح ، على وجه بديع وأسلوب حكيم

ومعنى صحة أن الناشرة لا يبدع في فن من فنون النظر وبطيل فيه النفس إلى الامد الأقصى إلا أن ينتقدمه سلف يكون كواضع الأساس أو يمحضه بصحبة من ينسج في البحث والخاتمة على منوال ذلك الفن فانا لم نر من الرجال الذين لقيتهم ابن خلدون من يصح أن يكون مساعدًا له على هذا المسالك الفلسفية الاجتماعية غير لسان الدين ابن الخطيب . ولهذا كان ابن خلدون ينوه بشأنه ويشيد بذلك إيهما حل . قال الشيخ ابراهيم الباعوني الشامي - فيما رأه صاحب نفح الطيب بخطه - : وكان (يعني ابن خلدون) يكتثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ويورد من نظمه ونثره ما يشتمل به الأسماء ، وينعقد على استحسانه الاجماع ، وتنقاض عن ادراكه الاطماع

(شعره)

يعد ابن خلدون في قبيل اشعراء المجيدين ، ولكن انكبايه على مدارسة العلوم وقلة غدو قريحته ورواحها على النظم عاشه عن

أن يبلغ في اتقان نسجه والإبداع في فنون التخييل مبلغ المشهود
لهم بالتفوق في هذه الصناعة

وقد اعترف هو نفسه بما يجده من استصعب الشاعر عليه وبعد
ما يأخذ منه عند ما يحاول نظمه . قال في مقدمة تاريخه : إذا كرت يوماً
صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحر
ـ وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة ـ فقلت له : أجد استصعباً
عليّ في نظم الشعر حتى رمته مع بصرى به وحفظي للجيد من الكلام
من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظي
قليلاً ، وإنما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار
العلمية والقوانين التالية . وعدّ جملة من محفوظاته ثم قال :
فامتلاً حفظي من ذلك ، وخدش وجه الملائكة التي استعددت لها
بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب ، فعاق القرحة
عن بلوغها . فنظر إلى ساعة معجباً ثم قال : الله أنت ! وهل يقول
هذا إلا مثلك ؟

ولصفاء فطرته وسلامة ذوقه قد يدرك شعره من تلك العلة
التي أومأ إليها غاية بعيدة في الإجادة . ومن مثله الرائية قصيدة التي
أنشدها سلطان المغرب ليلة الميلاد النبوى عام ٧٦٣ وافتتحها بقوله :

أَسْرَفْنَ فِي هَجْرِي وَفِي تَعْذِيبِي
وَاطْلَنَ مُوقَفَ عَبْرِي وَنَحْبِي
لَوْدَاعَ مُشْغُوفَ الْفَوَادَ كَثِيرٌ
وَابْيَنَ يَوْمَ الْبَيْنَ سَاعَةَ وَقْتَهُ
وَمِنْهَا :

يَا سَائِقَ الْأَطْعَانِ تَعْسِفُ الْفَلَاجُ
مُتَجَادِفًا عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَذَلَّلٍ
تَتَجَادِبُ النَّفَحَاتُ فَضْلًا رَدَائِهِ
أَنْ هَامَ مِنْ ظَاهِرِ الصَّبَابَةِ صَحِيَّهُ
أَوْ تَعْرِضُ مَسْرَاهِمَ سَدَفَ الدَّجَى
هَلَا عَطَفَتْ صَدُورُهُنَّ إِلَى الَّتِي
فَتَؤْمِنُ مِنْ أَكْنَافِ يَثْرَبِ مَأْمَنَا
حِيثُ النَّبُوَّةَ آيَهَا مَجْلُوهَةٌ تَنْلُوْنَ إِلَيْهَا
وَمِنْ أَجْوَدِ شِعْرِهِ وَأَعْلَاهُ مَطْلَامًا فِي الْبَلَاغَةِ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ
يَهْنِيءُ بِهَا أَبَا حِمْوَهُ بَعْدَ الْفَطْرَهُ :

هَذِي الدِّيَارُ فِيهِنْ صَبَاحًا
لَا تَسْأَلُ الْأَطْلَالَ إِنْ لَمْ تَرُوهَا
فَلَقَدْ أَخْدَنَ عَلَى جَفُونَكَ مَوْهَقًا
إِيَهُ عَلَى الْحَيِّ الْجَمِيعِ وَرِبَاعًا
وَقَفَ الْمَطَالِيا بِينَهُنْ طَلاحا
عَبرَاتِ عَيْنِكَ وَاكْفَأَ مِنْ تَاحَا
أَنْ لَا يَرِينَ مَعَ الْبَعْدِ شَحَاحَا
طَرَبَ الْفَوَادَ لَذَ كَرْهَمَ فَارْتَاحَا

وتعرض الشیخ ابن حجر لشعر ابن خلدون وقال : انه لم يكن
ماهراً في النظم وكان يبالغ في كثافته مع انه كان جيداً لنقد الشعر .
وعدم مهارته في الشعر مسلم على معنى انه لم يصل الى درجة من
أفرغوا جهدهم في هذه الصناعة وأصبحوا لا ترى تراثهم الا في
طبقات الشعراء . وقد أريناك من شعره مثلاً يشهد بان له قوّة
شاعرية فطرية ، وهو المثل الاعلى لشعر من انصرف بهمته الى
التخلص من العلوم النقلية والنظيرية ثم مديده الى الشعر على وجه
التحلي بفن من فنون الادب الجميلة

مُثل من فلسفة الاجتماع

لابن خلدون في الاجتماع والسياسة آراء سامية استمدتها من
مطالعاته الواسعة في التاريخ ومشاهداته أزمان الرحلة اذ تقلب في
ام ودخل في أحشاء دول . ولنسق اليكم أمثلة من فلسفة الاجتماع
التي لها مساس بمشروع جمعية أدبية كجمعية تعاون جاليات افريقية
الشمالية :

المغلوب مولع بتقليد الغالب^١

يقول ابن خلدون ان المغلوب «مولم أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» وعلل هذا بان النفس أبداً تعتقد السكال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالسكال بما وقر عندها من تعظيمه أو بما نفأط به نفسها من أن انتقادها ليس لغلب طبيعى انا هو السكال الغالب . وهذه نظرية صحيحة وعلتها ظاهرة وهي مطردة في الاقوام الجاهلة والشعوب التي يلقى حبلها على غاربها فتأخذ في تقليد الغالب والتشبه به في الشعار والعادات وتفرط في ذلك حتى تندمج في بني جنسه وتتفق في قبيل عنصريته فجدير برعماء الشرق ودعاة اصلاحه اليوم الا يدعوا النشاء منهمكا في تقليد الامم الغربية ، ويتحقق عليهم أن ينعموا النظر في أحوالها ومظاهر مدinetها ، ويعزوا بين ما كان من أسباب رقي حالتها الاجتماعية وانبساط يدها الى القبض على أزمة السياسة في الشرق ، فيحرضوا الشرقيين علي اقتباصه واضافته الى وسائل حضارتهم ، وما كان من الوضاع المنكرة أو أنه كان ناشئاً عن عادة ولديها البيئة اخلاقية ضربوا عنده صفحوا وأنذروا الشرق عاقبة الاقتداء به

و شخص أحوال تلك الام و تعييز طبيتها من خبيثها يحتاج الى نظر حكيم و ذوق سليم فقد يجد الناظر ما قد يكون نافعا في أوطنهم ولكن عمله في بلادنا اليوم ضرر محض . ومن أمثلة هذا اضراب التلاميذ عن الدروس احتجاجا على قضية سياسية فهذا النوع من الاضراب قد يتوجىء الله تلاميذ دولة مستقلة حرفيصة على ترقیتهم في العلوم والفنون فيكون نافعا لهم وذریعة لنجاح مطلبهم ، ولكن الدولة الاجنبية لايسوءها ان ينقطع ابناءنا عن التعلم ليالى و اياما بل يرتاح ضميرها الى أن تغلق المدارس احقاها حتى يتسرى لها ان تسوقهم كالانعام الى حيث تشاء

الامة المغلوبة يسرع اليها الفنا

يقول ابن خلدون « ان الامة اذا غلت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفنا » وجعل العلة في هذا ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستبعاد آلة اسوها فيقصر الامل ويضعف التناسل ، والاعتماد انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوة الحيوانية

ـ وهذه النظرية حادثة وعلتها معقوله فيتحم على زعماء الشعوب المغلوبة للاجنبي ان يعالجوها هذا الداء القاتل للام الجاهلة بما يثنونه فيها

عن أهل الخلاص ويضرروا بها الامم التي تخلصت من سلطة الغريب مثل اليونان وبلغاريا ورومانيا وأمريكا ويعزوها أن وسيلة النجاة منافسة الغالب في اسباب القوة من المال والعلم والاتحاد، ويربوها على العظمة وإباءة الضيم واستصغر العظام فانها تعود الى حياة وقوه تصارع بها حاكها الفاصل وان كانت فئة قليلة وبلغت جنود خصمها من الكثرة مالا يخطر على البال لانخقرن صغيراً في مخاضمة ان الذبابة أدمت مقلة الاسد

العرب والسياسة

عقد ابن خلدون في مقدمة تاريخه فصلاً ذهب فيه الى أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك . وتدور هذه المقالة على ألسنة بعض من يريد الحط من شأن العرب ولا سيما الاعاجم الذين يريدون استعمار بلادهم وادخالهم تحت سيطرتهم ويسوقونها كالشاهد على أن العرب لا يصلحون لأن يديروا سياساتهم بيد مستقلة . وينقلها بعض العرب أو أنصارهم فيرمي ابن خلدون بسفه الرأي في هذه القضية ويحكم على تحيطته بحججة سداد نظرهم في السياسة واسع فتوحاتهم أيام الخلفاء الراشدين ومن اقتفى أثرهم من دهاء الامراء وأبطال الرجال

والتحقيق أن ابن خلدون إنما يقصد العرب الذين يعيشون بالبادية وقبل أن يخرجوا من ظلمات جاهليتهم إلى الاهتمام بعلم الاسلام . وعباراته صريحة في هذا الصدد . وما قال في هذا القصد «إنما يصيرون إلى سياسة الملك بعد اقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية » ثم قال « واعتبر ذلك بدوائهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرًا وباطنًا وتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملوكهم وقوى سلطانهم »

خرجت يوماً من برلين على سكة الحديد إلى بعض نواحيها وكان في رفقى اثنان مع مستشرق الالمان . وبعد قليل أقبل على أحدها وقال لي : أليس هكذا يقول ابن خلدون : إن العرب أبعد الأمة عن سياسة الملك ؟ فقلت له إنما يريد العرب في عصر جاهليتهم وأما بعد أن تخلوا بهدى الاسلام فقد أصبحوا كغيرهم من الأمة : يجيدون النظر في السياسة ، ويدبرون زمامها على يقنة . فلاح على وجهه الامتعاض من هذا الجواب . وليس المانيا أقل شرهاً وحرضاً على استعباد الشعوب الشرقية من بقية دول الاستعمار

ويوضح ما قاله ابن خلدون من قلة خبرة العرب أيام جاهليتهم بذهاب السياسة انهم كانوا مغلوبين لطبيعتين لا ينتظم معها أمر

الملك وادارة شئون الجماعة :

احداها - الانتصار مثل الجار والقريب والصاحب والخليف
 وان كان ظالما . وكانوا يرون هذه الطبيعة من مقتضيات صحة العهد
 وعزه الجانب . والسياسة انا تقوم على قاعدة المساواة ، وحماية
 الحقوق من ايدي المعتدين عليها ، لفرق بين بعيد و قريب ،
 وعدو وحبيب . ويعتبر هذا بالحكومات الاجنبية فانك تجدها
 تعبث بقاعدة المساواة في البلاد المختلة فتستخف بحقوق الوطنيين
 وترفع ابناء جنسها عليهم درجات ، وهذا أول العلل التي يجعل
 سياستها منكرة ووطأتها لاطلاق

ثانية - المسرعة الى مؤاخذة المسىء والانتقام منه بدافع
 طبيعة اباهة الضيم ، والسياسة تقضى باحتمال بعض الاذى والاغصاء
 عن كثير من المفوّات . واقم الوزن بالقسط في الحكومات السائدة
 فانك ترى الحكومة التي هي اطيش حلا واخف يدا الى ارهاق من
 تسميهم مجرمين سياسيين فتسنيدن انها اقصر عمرا وأن بعضها في
 قلب شعبها احر من جهنم الغضا

وقد حارب الاسلام هاتين الطبيعتين حتى اخرج من العرب
 موازین قسط وعدالة كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى

(٤٦)

الله عنهم ، وجبال حلم وانة كعاوية بن ابى سفيان والمؤمن بن هارون
الرشيد رحمة الله

ايتها السادة ،

هذه كلمات في حياة الفيلسوف التونسي عبد الرحمن بن خلدون القينها على مسامعكم رجاء ان ياخذ منها طلاب العلم بالازهر الشريف عبرة حتى ترى منهم اوطانهم بعد العودة امثال ابن خلدون في عالمه وتفكيره ، وما ذلك على الله بعزيز

تقطير

اينما في اثناء تحرير هذه المعاشرة
بجمل مفصلة لبعض ما اقتضى الوقت
المحدود للاحتفال القاءه بعبارات وجيبة .
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

فِرْسَنْ

﴿ حِيَاةُ ابْنِ خَلْدُونَ ﴾

صفحة

- ٣ كلية المؤلف
- ٤ مقدمة الحاضرة
- ٥ نسب ابن خلدون
- ٦ دخول سلفه الى الاندلس
- ٦ نشأته في تونس
- ٧ هزمه على الارتحال
- ٨ رحلته الى مجاجة
- ٨ ابن خلدون عند سلطان فاس
- ٩ اتهامه بعوامرها
- ٩ ابن خلدون في السجن
- ١٠ خروجه من السجن وولايته كتابة المس ر وخطة المظالم
- ١١ ابن خلدون في دولة الوزير عمر بن عبد الله
- ١٢ رحلته الى الاندلس
- ١٣ ارساله سفيراً الى ملك الاسبان
- ١٤ شكر وزير الاندلس له
- ١٤ سفره الثاني الى مجاجة
- ١٥ ولايته الحجابة لسلطان مجاجة
- ١٦ انصاراه الى العلم
- ١٦ المراسلة بينه وبين الوزير ابن الخطيب
- ١٧ مساعيه السياسية وهو في بسكرة
- ١٨ استدعاوه الى فاس
- ١٩ عودته الى الاندلس سنة ٧٧٦

صفحة

- ٢٢ تصانيف ابن خلدون تاریخه و مقدمته
 ٢٣ عودته الى وطنه
 ٢٤ تقديم تاریخه الى صاحب تونس
 ٢٥ ابن خلدون في مصر
 ٢٦ ابن خلدون والوزير ابن زمرک
 ٢٨ ابن خلدون والطاغية تیمورلنك
 ٣٠ اخلاق ابن خلدون
 ٣٢ مكانته في العلم
 ٣٣ ابن خلدون والحافظ ابن حجر
 ٣٥ مؤلفات ابن خلدون
 ٣٧ شعره
 ٤٠ مثل من فلسفة الاجتماعیة
 ٤١ قاعدة المتنوب موالم بتقليد الفالب
 ٤٢ قاعدة الامة المغلوبة يسرع اليها القناع
 ٤٣ العرب والسياسة
 ٤٦ قبیبه



